٤٥ ـ المصريون المحدثون

شمائلهم وعاداتهم

في النصف الأول من القرن التاسع عشر

تأليف المستشرق الإنجليزي ادورد وليم لين

للأستاذ عدلي طاهر نور

تابع الفصل الثالث عشر — الأفيون

قد تعتمد المرأة أحياناً على الظروف المخففة أو على معونة أصدقاء أقوياء، لتنجو من عقوبة الإعدام إذا ضبطت في معاشرة أثيمة. وذلك كالحادث التالي: زوّج الباشا إحدى جواريه من خصّاص غني كان الباشا قد اشترى منه كثيراً من مماليكه وجواريه، ولم يكن الرجل يخون زوجه فحسب بل كان يهملها تماماً. فصاحبت تاجراً كانت تعامله صحبة غير لائقة. وحدث ذات يوم في غيبة الزوج أن رأى أحد عبيده السود رجلاً في شباك الحريم. فذهب توا إلى غرفة الزوجة ليبحث عن الرجل. وبغتته الزوجة قادماً فأدخلت عشيقها في غرفة ملحقة وأغلقتها عليه. ففتح العبد الباب عنوة. فهجم عليه الرجل بخنجر كان يحمله في حزامه، ولكن العبد قبض على النصل بيده. وعاقته الزوجة حتى هرب عشيقها ثم قبلت يده وتوسلت إليه ألا يخبر زوجها فيسبب قتلها. غير أنها وجدته صُلباً لا يلين. وذهب العبد في الحال إلى سيده وأراه يده الدامية وأخبره بالحادث. وهربت المرأة في أثناء ذلك تنشد الحماية في حريم الباشا. وطلب الزوج من الباشا أن يرد زوجته عليه ليقتلها. فاستدعاها الباشا وسألها عن جريمتها فرمت بنفسها عند قدميه وقبلت طرف ثوبه وأخبرته بسوء أخلاق زوجها وإهماله الشديد لها. فبصق الباشا في وجه الخصاص لأنه اعتبر أن سلوكه إهانة له. وأعاد الزوجة إلى حريمه. ولم يعش عشيقها طويلاً بعد ذلك فقد خنق في منزل بعض البغايا ولم تعاقب البغيّ لعدم ثبوت التهمة عليها

يؤخذ على المصريين والمسلمين عامة القسوة الشديدة في معاملة النساء. حتماً إنهم لا يعتبرون استشارة الفتاة القاصر قبل زواجها ضرورياً. ولكن الغالب أن الرجل في الطبقتين الوسطى والعليا يكاد يختار زوجه على السماع دون أن يراها، إذ لا حيلة له في رؤيتها

سليم الأذن يستسيغ (الخطاء والصواب) أكثر من (الخطأ والصواب)، ورحم الله امرأ صيرك — وأنت تريد الكلام في الفتنة — إلى الجرس والموسيقى

ولست أوفي (الرسالة) ما يجب لها من شكري وشكر العلم والأدب على نشرها مقالاتك كما هي: فقد رأيتك يا سيدي تدفني — بعد كلامك في الموسيقى — أن نسبك ينتهي إلى بني مراد!! (تشريفنا)؛ ولقد تواضعت جدا إذ لم تنتسب في بني هاشم وأنت تشعر في صميمك شعوراً غالباً عليك بالحاجة الماسة إلى نسب ما بعد هذا التخبط

أتسمح لي بطلب متواضع جداً؟ إنك ستفعل مشكوراً

١ — كن أميناً فيما تنقل عن الأحياء والأموات

٢ — احتط فيما تكتب في الفتنة العربية، فإن عارفيها كثيرون، وليست كذلك السريانية والآشورية. فلك في هؤلاء الأخوات ميدان تصول فيه وتجول

٣ — إن أبيت إلا الخوض فابتدئ من المسائل ما كان (آلياً) بحتاً وتجنب ما يحتاج إلى ذوق وعلم وحسن فهم، وإلا وقعت في مثل ما وقعت فيه حين زعمت أن قولك: لا يقال كربات بيضاء مستنداً إلى قول سيبويه

٤ — إنك لا تستطيع نقد كلام حتى تفهمه، ولن تفهمه حتى تحسن قراءته، ولن تحسن قراءته حتى تتخلق بأخلاق المتعلمين

• — لقد غبر زمان — لا رده الله — كانت الشهرة فيه عن طريق الدعوى والتحرش بمن لا يبلغ التحرش أن يكون أصغر تلاميذهم، وأصبح يقاس فضل المرء بقوة حجته وحسن خلقه لا بسلاطته وتليسه. هذا وللأب الفضال أنستاس ماري الكرملي جزيل احترامي.

(دمشق) سعيد الأفغاني

حاشية: عندي على كل ما تقدم شواهد من كلام الأب المتنور في الرسالة، فمن جملتها الرد فقط أجبت به عن جواب على ما يطلب، والا فبيان أغاليطه وإسفافه وسوء فهمه وتخليطه الصحيح لا تتسع له الحاشية

قبل أن يعقد العقد وتنقل إلى منزله . فيستحيل لذلك أن يكون هناك محبة متبادلة قبل الزواج . والحقيقة أن الجنسين مما تثقل عليهما القوانين والعادات الجائرة ، ولكنهما من حسن الحظ يعتبران هذه القيود ملائمة مشرفة . وقد يشعران بالضرر في التخلص من هذه العادات . وقد لاحظت أن الحجاب الواقع على النساء يكون باختيارهن إلى حد كبير . وأعتقد أنه أقل صرامة في مصر منه في أي بلد آخر من بلاد الدولة العثمانية . ومن المؤكد إن هذا الحجاب أقل جداً مما صوره لي الكثيرون . وينظر النساء إلى هذا الاحتجاب بفخر من حيث أنه يدل على عناية الزوج بهن . كما أنهن يقدرن أنفسهن بقدر حجبهن كالكنوز[1] ولا يليق في المجتمعات الطيبة أن يستفسر المرء بطريقة مباشرة عن حال زوجة الصديق أو امرأة ما في منزله إلا إذا كانت قريبة له . وسأل أحد مصارف المصريين آخر كان في باريس عن أغرب الأشياء التي رآها في بلاد الكفار فأجابه الآخر : إن كل ما شاهده حرى أن يثير إعجاب العاقل البعيد عن التعصب . ولم أر شيئاً يستحق الاعتبار مثل هذه الحال : فقد جرت العادة في باريس وغيرها من مدن فرنسا أن يدعو كل من الأغنياء والعظماء أصدقاءهم ومعارفهم رجالاً ونساء معاً إلى حفل في منزله . ويستقبل الضيوف في غرف تضاء بعدة شموع وقناديل . وهناك يختلط الرجال بالنساء ، وأولئك كما تعلم سافرات . ويستطيع الرجل أن يجالس زوجة رجل آخر وهو لم يرها من قبل . ويستطيع أن يسايرها ويحادثها ويراقصها أيضاً في حضور زوجها الذي لا يغضب ولا يثير لمثل هذا السلوك المخزي »

يشتهر المصريون أيضاً بكرمهم وجشعهم على السواء . وإن اجتماع مثل هاتين الصفتين المتناقضتين في ضمير واحد قلما يدهش . ولكن هذا هو الحال مع هذا الشعب . ويعتبر الغش والمكر في التجارة ، وذلك في جميع الشعوب ، إحدى نقائص المصريين القائمة . وقلما يتردد المصري في مثل هذه الأحوال عن الكذب ليكسب . ويميل الشعب الذي يئن تحت نير الجور والجشع ، الذي امتازت به حكومات مصر طويلاً ، إلى الشح دائماً . لأن المرء بالطبع يتمسك بما هو أكثر عرضة للضياع . ولذلك يعمد المصري المضيم إذا ملك مبلغاً من المال لا يلزمه حالاً إلى شراء مصاغ لامرأته أو لنسائه ، إذ يسهل عليه تحويل المصاغ ثانية إلى نقود . ومن ثم أيضاً جرت العادة في هذا البلد ، وفي أكثر البلدان التي تخضع لهذه الظروف السياسية ، أن يخبيء الرجل أمواله في منزله تحت البلاط أو في أي موضع آخر . ولما كان الكثيرون من هؤلاء يموتون فجأة دون أن يطلعوا أسرهم على مكان المخبأ فإن من المألوف أن تكتشف نقود عند هدم المنازل . وهناك رذيلة تقرب من الجشع وهي الحسد . وأعتقد أنها تكثر بين المصريين المحدثين والشعوب العربية بأجمعها على السواء . وبينما نرى الكثيرون مدفوعين بسلامة النية أن هذا الميل الكريه يكاد يتركز في أذهان شعوبهم تماما .

والمصريون أمناء في الوفاء بديونهم . وقد بين الرسول صلعم أن لا شيء حتى الاستشهاد ، يكفر عن دين لم يوف . وقل من المصريين من يقبل فائدة على قرض أقرضه إذ أن الشرع يشتد في تحريم ذلك .

إن دوام الصدق فضيلة نادرة للغاية في مصر الحديثة . وقد ترخص الرسول في الكذب إذا وفق بين الناس في منازعة أو أرضى زوجة أو أفاد في حرب على أعداء الدين . غير أن الكذب في أحوال أخرى محظور بشدة . ويبرر ذلك بعض التبرير عادة الكذب السائدة بين العرب المحدثين إذ أن السماح لشعب بالكذب في أحوال يعوده بالتدريج الكذب في غيرها . ومع أن أكثر المصريين يكذبون عمداً فقلما تسمعهم يرجعون عن تحريف غير مقصود دون أن يقولوا : « لا . أستغفر الله إنه كذا وكذا » كما يقولون عند ما يقررون شيئاً لا يتأكدون منه تماماً : الله أعلم

ويعكنني أن أذكر هنا ، وأنا أشعر بالفخر ، الحادث التالي : كان في القاهرة صانع أرمني اشتهر بالصدق إلى درجة أن عملاؤه قرروا تسميته اسماً يدل على تمتعه بفضيلة قلما توجد فيهم ، فلقبوه بالإنجليزي وصار من بعد ذلك لقباً لعائلته . والمعتاد أن تسمع التجار هنا يقولون عند ما يطلبون ثمناً لا يتبين إنقاصه : كلمة واحدة . (كلمة الإنجليز) . وكثيراً ما يقولون أيضاً في هذا المعنى : « كلمة الفرنج » . ولكني لم أسمع أبداً بأمة كرمت هذا التكريم غير الإنجليز والمنازية . وقد اشتهر هؤلاء دون أغلب العرب الآخرين بالصدق في القول

أشرت سابقاً إلى عادة القسم بالله السائدة بين المصريين . ويتبقى أن أضيف هنا أن الكثيرين منهم لا يترددون عن القسم

(١) وتخاطب السيدة المحترمة في رسالة كما يأتي : السيدة المصونة والجوهرة المكنونة .

فيدرأوا عن أنفسهم تهمة الكذب . وقد يقولون فى هذه الحالة أحياناً : والله (بكسر الهاء) أو عادة : والله . كأنهم يزعمون أن الصيغة الأخيرة يجوز استعمالها فى الدعاء . أما « والله (بالكسر) فهو قسم صريح والنطق به كذباً ، إثم كبير . ويكفر عن هذه اليمين بإطعام عشرة مساكين أو كسوتهم أو تحرير رقبة أو صيام ثلاثة أيام . على أن هذه الكفارة رخص القرآن بها لقسم طائش فقط . ولكن المصريين المحدثين يراعونها أحياناً ليحرروا أنفسهم من وزر قسم كاذب مقصود . ويفضلون الصوم على الكفارات الأخرى . وهناك أيمان أعتقد أن بعض المسلمين لا يترددون فى القسم بها كذباً مثل قولهم ثلاثاً : « والله العظيم » أو القسم على المصحف بقولهم : « بما يحتوى هذا من كلام الله » ، ولكن القسم الذى لا يزال يعتمدون عليه هو قولهم : « علىّ الطلاق » أو « علىّ الحرام » أو « علىّ الطلاق بالثلاثة » . فإذا كذب الرجل فى أحد هذه الأقسام الثلاثة تصبح امرأته طالقاً إذا ثبت حنثه . وإذا كان للرجل أكثر من زوجة وجب حينئذ أن يختار إحداهن فيخصص بها الطلاق . غير أن هناك كاذبين فاسدين يقسمون زوراً بأشد الأيمان إلزاماً . وقد قال الشاعر يصف هذا الخلق . وأكذب ما يكون أبو المثنى إذا آلى يميناً بالطلاق

ويسهل تحريض المصريين إلى المشاجرة وخاصة السفلة الذين يتشاتمون فى ثورتهم بسب الآباء والأمهات واللحى الخ . ويسرفون فى نعت كل من الآخر بأحط النعوت كأن يقول : يا ابن الكلب ، أو يا قواد ، أو يا خنزير ، وهناك تسمية أخرى يرونها أشد الشتائم على الدوام وهى قولهم : يا يهودى . وعند ما يسب أحد المتخاصمين الآخر يجاوبه هذا بلعن أبيه وأمه وأحياناً بلعن العائلة جميعها . ويهدد كل منهما الآخر ولكن قلما يبادران إلى الضرب . غير أننى رأيت فى أحوال قليلة بعض السفلة ثائرين إلى درجة أن كلا من المتشاجرين كان يعض الآخر ويقبض عليه من حلقه . وشاهدت أيضاً عدة مرات أفراداً من الطبقتين الوسطى والسفلى يتحملون السب الغليظ . وكثيراً ما سمعت المصرى يقول عند ما يضربه يده له : « الله يبارك فيك . الله يجازيك خيراً . إضربنى مرة أخرى » . وتنتهى المشاجرة عادة بأن يقول أحد الطرفين أو كليهما : « الحق على » وكثيراً ما يقرآن الفاتحة بعد ذلك ثم يتعانقان ويقبل كل منهما الآخر أحياناً

ويميل المصريون خاصة إلى الهجاء . وكثيراً ما يظهرون ذكاء فى تهكمهم ومرحهم . وتساعدهم اللغة العربية على استعمال التورية والحديث الملهم الذى يتهكمون فيه بكثرة . وتهجو الطبقات السفلى أحياناً حكامها فى الأغانى ويسخرون من هذه القوانين التى يقاسونها كثيراً . وقد تسليت مرة بأغنية شائعة فى أسوان وإقليمها . وكانت هذه الأغنية دعاء صادقا بأن يبيد الطاعون حاكمهم المستبد وكاتبه القبطى . وكانت فى مصر كلها أغنية ذائعة أثناء زيارتى الأولى ألفت لزيادة ضريبة (الفردة) وكانت تبدأ هكذا : « يا للى عندك لبده ، بمها وادفع الفرده » واللبدة كما ذكرت قبلاً غطاء رأس من اللبد يلبس تحت العمامة أو بدلها . ويعتبر من ليس له غطاء رأس غير اللبدة فقيراً جداً .

« يتبع »

عبد الله خير

الصديق

أبو بكر

للدكتور محمد حسين هيكل باشا

ثمنه ٣٠ قرشاً

خلاف البريد

يطلب من مكتبة النهضة — ٩ شارع عبد العزيز بمصر

حكمت محكمة دمنهور العسكرية بجلسة ٢٣ — ٩ — ١٩٤٢ فى القضية رقم ١٨٨٣ سنة ١٩٤٢ جنح عسكرية ضد أحمد مهدى محمد س ٤٠ فلاح عزبة محلة دسوقى بتقرعه ٥٠ جنيه والمصادرة والغلق واللصق على محله ومركز البوليس والنشر على مصاريفه لأنه باع سكرا بسعر أزيد من المحدد بالتسعيرة